البطولة في ادب الاندلس وشمال افريقيا

بقلم محمد مزالي

سيداتي ، سادتي ،

سأتحدث اليكم اليوم في موضوع البطولة كما يصورها أدب الاندلس وشمال افريقيا . واني اذ اشعر بشرف تقديم مثل هذا الموضوع الخطير لتتناولوه بالتعليق والمناقشة لا أخفي عليكم اني غير راض تمام الرضا عما انتهيت اليه من بحث وتحرير هو الى الارتجال اقرب وبعمل التعميم والتبسيط الصق وانسب .

ذلك ان هذا الموضوع خلافا لغيره من المواضيع غير مضبوط بزمان ولا باق في حدود مكان ، فهو يتناول الادب العربي في الاندلس وفي جميع اقطار شمال افريقيا منذ الفتح الاسلامي الى يومنا هذا مع الرجاء في ان لايضاف اليه الادب الشعبي الذي هو غني جدا عندنا وزاخر بمعاني البطولة ، ومن واجبي فوق كل ذلك ان ابقى ، وانا اعالج مثل هذا الموضوع ، في حدود الاربعين دقيقة . واذا اضفت الى ما سبق اني لم اكلف بعلاج الموضوع والكتابة فيه الا منذ ايام عذرتموني والتمستم ظروف التخفيف لما ستلاحظونه فيه من نقص وبعد عن الغاية القصوى ويطيب لي في هذه المناسبة ان اجدد امامكم الشكر لزميلي الاستاذين محمد الفاضل بن عاشور ومحمود الباجي لما اسدياه لي من نصائح وزوداني به من معلومات كانت خير معين ونعم الدليل .

ومهما يكن فاني ارجو ان تكون المناقشة بناءة والتعاليق ايجابية حتى تحصل الفائدة ونفوز بتقرير كامل واضح عن هذه القضية .

سادتي ، ان البطولة مثل اعلى لا يزال البشر منذ « بروميثي في الاصفاد » يسعون اليه سعيا ، وعنوان بارز من عناوين المجد والرفعة المعنوية ما فتيء الانسان يحرص على شرف الانتساب اليه والاتصاف به ، وروح ما انفكت المجتمعات تنفخه في اجيالها جيلا بعد جيل ، وتغذيهم به ليكونوا خير خلف لخير سلف وينهضوا برسالة القوم التاريخية ، وهي مظهر رائع للجانب الالهي الذي هو في كل انسان يدفعه الى التمرد على الوجود والاستعاضة عن دنيا الرتابة والخضوع والرضا بدنيا الحركة والتجديد والخلق وتجاوز الوضع الذي قد يبدو للبعض قضاء مبرما وطبيعة لا حول للانسان عليها ولا قوة ، البطولة هي اثبات الافراد والجماعات لذاتهم والسمو بها الى « الله » .

واذن فليس من الوفاء لروح الكفاح البشري ولا لانتصارات الانسان على الطبيعة وعلى الجانب غير المعقول منه ان نقع في ما توحي به الكلمة في التعبير العلمي فنحصر البطولة في صفة من صفاتها اعني الشجاعة. ان البطل شجاع ومقدام من غير شك ، والشجاعة ابرز صفاته ، من دون ريب ، ولكنه لا يكون بطلا حقا حتى يتحلى بجملة من الصفات الخلقية الاخرى ، يبرز بها عمن سواه وتسمو به الى اعلى مراتب الانسانية الحق ، منها المروءة والاريحية والشعور المرهف بالكرامة والاباء وضبط النفس وقوة الارادة ورجاحة الرأي وحسن التدبير ، وغيرها من الخصال التي تجعل من الانسان الذي كرمه الله وخصه بالعقل سيد يخضع لزمام ارادته شؤون نفسه من دون ان يقتل نفسه ويسيطر على الطبيعة من دون ان يصاب بغرور تحدى سننها او تجاهل معطيات واقعها ، فتكون الشجاعة في خدمة الخير والحق وتكون بناءة متحالفة مع التقدم مسايرة للتاريخ بل مسيرة له .

فاذا كانت هذه هي البطولة وكان ذاك هو نزوع البشر ـ افرادا وجماعات ـ اليها منذ فجر التاريخ الى اليوم فلا بد لنا ، نحن العرب، من تحسس مواطنها في ادبنا القديم والحديث وضبط معانيها حتى نيسر لجيلنا الذي يتوق لحياة افضل وعالم اجمل ويهب نفسه كل يوم في سبيل ذلك تمثل الصورة المثلى يستوحيها ويستمد منها العبر ويتجدد دوما بالتأمل فيها .

فاذا كان ذلك كذلك لنتساءل ـ في حدود حديثنا اليوم ـ كيف يصور الادب الاندلسي والشمال الافريقي هذه البطولة وما هي نماذجها فيه ؟ ولا بد للاجابة عن ذلك من اتباع منهج تاريخي نستعرض بمقتضاه اهم عصور هذا الادب في مختلف الاقاليم التي يهمها الامر .

ولعل اول بطل تصوره العرب المسلمون في تاريخهم هو رسولهم عليه السلام. فقد كانت البطولة اول ما كانت في نظر شعراء المغرب العربي والاندلس تتجسم على اكمل مظاهرها في بطولة الرسول الاعظم باعتباره القائد الذي لم يهزم في موقعه ولم يتراجع امام عدو ، والشجاع الذي يلوذ به اصحابه اذا حزبهم امر كما قال عنه الامام علي والمستميت الذي يثبت ولو تخلى عنه اصحابه . وقد ظهرت الاشادة بالجانب البطولي في خصائص الذات المحمدية طاغية على كل ما عداها من فنون الشعر وموحية مع الحب الايماني بكثير من الاناشيد العاطفية والابداع الوصفي . وعرفنا في المغرب العربي والاندلس شعراء وقفوا انفسهم على المديح النبوي وابدعوا في تمجيد البطولة في شخص الرسول واستيفاء معانيها وحدودها من سيرته ، وذلك امثال ابي زكريا يحي الشفراطيسي التوزري وابنه ابي محمد ومثل ابي عمرو عثمان بن عتيق وابي يعقوب يوسف بن عبد الملك البكري وابن جابر الاندلسي وغيرهم :

فاذا نظرنا الان في ادب الاندلس بالذات والتمسنا منه البطولة وتعرفنا الى نماذجها فيه لاحظنا اولا ان عنصر الملحمة فيه ضعيف نسبيا وان الشعراء انصرفوا الى وصف الطبيعة والتغني بلذة الحياة وافراح الوجود حتى انك لا تكاد تجد في آثار ابن حزم صاحب طوق الحمامة شيئا يذكر في ربه نظم ارجوزة في ٤٥٠ بيتا مدح بها الخليفة عبد الرحمن الناصر

وابن خفاجة فانما يجب استمداده مما نظماه في باب المديح . فالحروب لم تغذ الادب الاندلسي تغذية كافية وان لم يكن خاليا منها . وابن عبد ربه نظم ارجوزة في ٤٥٠ بيتا مدح بها الخليفة عبد الرحمان الناصر وذكر فيها حروبه وغزواته ، وسجل تاريخ كل غزوة وهي التي يقول في مطلعها :

وبعدها غزاة ثنتي عشره وكم بها من خبرة وعبره

وابو طالب عبد الجبار نظم كذلك ارجوزة هي في حقيقة الامر ملحمة تصور شخصية ابن تاشفين وتنوه بأياديه البيضاء على الاندلس التي نصرها على الكفار فقد قال الشاعر في مطلعها :

فاذا اراد الله نصر الدين استصرخ الناس ابن تاشفين
فجاءهم كالصبح في اثر غسق مستدركا لما تبقى من رمق
وافى ابو يعقوب كالعقاب فجرد السيف عن القراب
ووصل السير الى الزلاقة وساقه ليومها ما ساقه
لله در مثلها من وقعة قامت بنصر الدين يوم الجمعة

وقد درج على طريقة ابن عبد ربه لسان الدين بن الخطيب في ارجوزته الرائعة التي يحق لها ان تدعي « شهنامة العرب » وهي الارجوزة التي نظم فيها التاريخ الاسلامي ومظاهر البطولة الاسلامية في المغرب وسماها « رقم الحلل في نظم الدول »

والى جانب الشعر الملحمي يمكن لمن يتصفح دواوين شعراء الاندلس ان يجد في ما مدحوا به الامراء وكبار القوم معالم البطولة وايات الرجولة الفذة المتسامية ، من ذلك ما مدح به ابن دراج القسطلي المنصور بن ابي عامر وما مدح به ابن زيدون ابا الوليد بن جهور صاحب قرطبة اذ يقول :

فرح السياسة اذا ملكت عنانها فرح العروس بصحبة الاملاك

ويقول ابن زيدون في مدح ابي الحزم بن جهور ايضا :

لا يوسم الرأي الفطير ولا يعتاد ارسال الكلام قضيبا

وقال في مدح صاحب بطليوس المظفر سيف الدولة ابي بكر محمد بن مسلم :

نهيك اذا جن ليل العجاج سرى منه في جنحه بدرتم
فسام السيوف بهام الكماة وروى القنا في نحور البهم
جواد دراه مطاف العفاه ويمناه ركن الندى المستلم
يهيج النزال به والسؤال ليثا هصورا وبحرا خضم
شهدنا ، لاوتي فصل الخطاب وخص بفضل النهى والحكم

وهكذا يجمع ابو بكر محمد بن مسلم اهم صفات البطل اي الشجاعة والاقدام والكرم واستقامة الراي وكل ما به نميز بين الصعلوك الرديء والفتى وبين قاطع الطريق والبطل الهمام .

وصورة هذا البطل تبرز فيما مدح به ابن سهل ابا بكر محمد بن غالب اذ يقول :

حليف جلاد ليس تكسى سيوفه وثوب طراد ليس تعرى طواهله
تضم على ليث الكباح حروبه وتسفر عن بدر التمام محافله
تساوي مضاء رأيه وحسامه ولان مهزا معطفاه وذابله
تحيرت فيه والمعاني غرائب افكاره امضى شبا ام عوامله

ومن ايات البطولة عدم الخضوع الى قوة ي وجبروت الطاغية والاعتصام بكرم النفس والاباء والشهامة فقد قال عباد في هذا المعنى :

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
الد من طعم الخضو ع على فمي السم النقيع
ان تستلب عني الدنا ملكي تسلمني الدموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع

وقد تبلغ شجاعة البطل حدها الاقصى وتقارب اللاشعور بالخطر واللامبالاة بالمآل المحتوم فيهب البطل حياته ويجد لذة في التضحية ويعني بنوع الميتة اكثر مما يعنى بالغاية منها . فقد جاء في كتاب اعمال الاعلام لحسام الدين بن الخطيب ان المعتمد اقتحم بلدا وعليه قميص يشف عن بدنه وحمل على الداخلين فردهم على اعقابهم وقتل منهم فارسا وانزعج الناس امامه وخلفوا الباب فامر بسده وعاد الى القصر ، والى تلك الحال يشير بقوله : ـ

كم رمت يوم نزالهم ان لا تحصنني الدروع
ما سرت قط الى القتا ل وكان من املي الرجوع
شيم الالى انا منهم والاصل تتبعه الفروع

وقبل ذلك نجد الامراء القواد ينحون هذا المنحى فيفتخرون بما اتصفوا به من جليل الصفات وبما رزقهم الله به من عظيم الخصال فهذا ابراهيم بن الاغلب يفتخر بانتصاره ويشيد بحزمه وعزمه فيقول :

ما سار عزمي الى قوم وان كثروا الا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا اقول اذا ما الامر نازلني يا ليته كان مصروفا وقد وقعا
حتى أجليه قهرا بمعتزم كما يجلى الدجي بدر اذا طلعا

وكذلك حفيده ابو العباس بن ابي عقال بن ابراهيم وهو الذي سهر على اعداد الجيش الذي فتح صقيلية ، اذ يقول في الفخر :

انا الملك الذي اسمو بنفسي فابلغ بالسمو به السحابا
انا ابن الحرب ربتني وليدا الى ان صرت ممتلئا شبابا

وبقي الشعراء يمدحون الامراء الابطال وينوهون بخصالهم وبقي بعض الامراء والقواد يفتخرون بشجاعتهم وقوة شخصيتهم وصورة البطولة هي متقمصة لا في الامة او القوم عامة بل في شخص فذ فيه تجتمع مزايا القوم واليه يرجعون في الملمات وبه يعتصمون عند الشدائد .

ذلك ما استخلصناه من اشعار شعراء الاندلس في مختلف اطواره التاريخية وفي شعر الاغالبة والمرابطين وفيما نظم في دولة الموحدين ايضا سواء في مدح ابي حفص الاغماتي للخليفة يوسف بن عبد المؤمن او في مدح عبد الواحد المراكشي للامير ابراهيم بن يعقوب المنصور او فخر الامير عبدالله الموحدي او في شعر ابن حبوس حول فتح بجاية وشعره فيمن عصى دعوة ابن تومرت . الا انه لا بد من وقفة ولو قصيرة عند شاعر عاش في ظل الدولة العبيدية وتغذى شعره بمدح الفاطميين اعني محمد بن هانيء الذي قال فيه ابن حلكان « انه عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة» ان غالب اشعار ابن هانيء تطغى عليها العاطفة الدينية فهو اسماعيلي يؤمن بالايام وبنه معصوم وبانه بطل لا كالابطال وعظيم لا كالعظماء . لذا نراه يرفع من منزلة المعز مثلا ويسمو به عن مستوى البشر العام حتى يكاد يخرجه من دائرتهم فجاء فجاء شعره طافحا بصفات البطولة الخارقة للعادة ومغاليا في تشخيص آثرها ويكفي ان اذكركم بالصيدة الشهيرة :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار
وكانما انت النبي محمد وكانما انصارك الانصار
ان تخب نار الحرب فهو بفتكه ميقادها مضرامها المغوار

ويقول عنه في قصيد اخر :

هذا ابن وحي الله تأخذ هديها عنه الملائك بكرة وأصيلا

ويقول في قصيد اخر :

النور انت وكل نور ظلمـــة والفـوق انـت وكـل فوق دون

ونجد نفس الغلو ونفس الخيال المولد الى ابعد حدود التوليد فيما نظم هذا الشاعر من ملاحم تشيد ببطولة قواد المعز وبالاخص جوهر الذي وصف بطولته في قصيدة مشهورة قالها بمناسبة خروج الجيش بقيادته من تونس الى مصر وتوفيقه في ذلك ومطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصـر فقل لبني العباس قد قضي الامر
وقد جاوز الاسكندرية جوهـــر تطالعـه البشرى ويقدمه النـصر

الى ان يقول : ـ

افي الشمس شكانها الشمس بعدما تجلـت عيانـا ليس من دونها ستر
وما هي الا آية بعـد آيـة ونذر لكـم ان كان يقنيكم النـذر
فكونوا حصيدا خامدين او ارعـووا الى ملك في كفـه الموت والنـشر

والى جانب ذلك كله يجد مؤرخ الادب تطورا في معنى البطولة وفي الغاية منها عندما هددت ارض الاندلس بالسقوط ثم عندمـا سقطـت واستولى عليها الاسبان واخذ نجم المسلمين في تلك الربوع في الافول فاذا بالشعر حنين الى المجد التليد وشوق الى الايام الغر وتغذى من العاطفة الدينية الباعثة على التضامن مما هو موجود في اشعار ابن عبدون وابي البقاء الرندي وفي شعر ابن الخطيب ونثره الذي يقول فيه فيمـا يقول :

« ايها الناس اخوانكم المسلمون في الاندلس قد داهم العدو ساحته ، وراع الكفر استباحته وزحفت احزاب الطواغيت اليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وايديكم بعزة الله اقوى وانتم المؤمنون اهل البر والتقوى وهو دينكم فانصروه وجوراكم القريب فلا تخفروه وسبيل الرشد قـد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد قد تعين .. »

وضرب اخر من البطولة لا بد من ذكره ايضا هو ما نجده فيما نظمه الشعراء حول اعتداءات الروم على ثغور شمال افريقيا فاصبحت البطولة، تمتزج بقهر الروم والانتصار عليهم وتخليص الافارقة من قبضتهم واصبح في ذلك العصر اسم ابي الحسن المريني طاغيا على شعر البطولة فـي جميع اقطار المغرب العربي التي حكمها والتي يحكمها ويظهر ذلك في قصيد ابي القاسم التونسي الذي انشده بين يديه وكانت بطولته اشد تاثيرا على الشاعر من تحمسه لوطنه المغلوب على امره وعرشه المنهار قال : ـ

اجابك شرق ان دعـوت ومغـرب فمكـة هشت للقـاء ويثـرب
وحيتك او كادت تحيـي منابـر عليها دعاة الحق باسمك تخطـب

الى ان يقول

تملكـت شطر الارض كسبا وشطرها ورائا فطاب الكـل ارث ومكسـب
بجيش على الالواح والماء يمتطـي وجيش على الغـر السوابق يركب
وجيش من الاحسان والعدل والتقى وذاك لعمـر اللـه اغـلى واغلب
فلا مركـب الا يزين راكبـا ولا راكب الا به ازدان مـركـب
ولا رمح الا وهـو أهيـف خاطـر ولا سيـف الا وهو ابيض قاضب
له من عجيب السحر بالقول اضرب وفي هامة القوم المضارب مضـرب
شرعت من الاحسان فينـا شريعـة تساوي بهـا ناء ومن يتغـرب

فالبطولة حينئذ خوض المعارك وكسب الانتصارات وبسط العـدل والاحسان وحماية الديار والتخوم وبذل العطايا . ويقول شاعر صقليـة ابو عبدالله الحسين بن على القائد يصف بطولة احمد بن ثقة الدولة ويفريه بمنازلة روما :

فكـم من معقـل للعين ســام سلكـت اليه منهـاج الرشـاد
وقد حارت نفوس القوم فيـه الى ان قام فيـهم منـك هـاد
فاصعدت الخيول الى الروابـي وانزلت الوعول الى الوهـاد
وكم اخرجت منهـا من كمين ومن عضب ومـن طرف جـواد

الى ان يقول :

كان رؤوسهم كانـت نبـاتا ابادتـه سيوفـك بالحصـاد
واما رومة فالـى قريـب يصحبها بداهمـة الحـداد
عبيدك من تـؤم من الاعـادي ورزقك ما تروم من البـلاد
فدونك يا عميـد الملك فاعمـد تنـل ان رمتهـا ذات العمـاد

فالبطولة هنا تتاثر في مقياسها الى حد بعيد بما يكـون للشاعر فيهـا من مغنم شخصي فوق ما تستجمع من معاني الاكبار والتقدير والمجد وهي بهذا الاعتبار مظهر من مظاهر الشكر والاعجاب معا .

فاذا عدنا الان الى اثر سقوط الاندلس في الادب عامة وفي معنى البطولة قلنا ان عقدة الهزيمة استحكمت في النفوس اثر انهيار الاندلس وتلاشى الامل وبلغ الامر اقصى حده بالغارة الاسبانية التي شنهـا (شارلكان) على المغرب الاقصى والجزائر وتونس وليبيا فجاءت انتصارات السلطنة العلوية بالمغرب والسلطنة العثمانية في ليبيا وتونس والجزائر منفذا للرمق الباقي من الشعور بالكيان القومي وباحثا للشعور بالكرامة ومجددا لبوارق من الامل في النجاة من الدمار الماحق . فاصبحت هاتان السلطنتان المشرقية والمغربية قطب الحركة الملية ومجتمع المشاعر وصـار تمجيدهما والتفاخر بما لهما من الغزوات التي ردت كيد الاعداء المعنى المعتمد عليه في اثارة روح الهمة الدينية والكرامة واصبح التعلق بكل من السلطنتين امرا مشاعا بين اصحاب النفوس اليقظة في المغرب العربي مقطوعا فيه النظر عن مرجع الحكم السياسي . فاننا نجد في نصوص الخطب والرسائل والقصائد التي انشاها ادباء المغرب الاقصى تعلقا بتمجيد السلطـان العثماني ، كما نجد في ما انشاه من مثل ذلك ادباء الجزائر وتونس وليبيا وهي التابعة لحكم السلطنة العثمانية تمجيدا لسلاطين المغرب الاقصى وتنويها ببطولتهم الجهادية ، وان هذه الحقيقة لتظهر في المراسلات التي كان يحررها الكاتب ابن ابي الضياف في منتصف القرن الثالـث عشر على لسان امراء تونس الى السلطنتين العثمانية بالمشرق والعلوية بالمغرب ، حتى ان الواقف على تلك الرسائل ليحتار في التوصل الـى تحقيق الارتباط السياسي لاولئك الامراء الذين صدرت الرسائل بلسانهم مع ان الوضع من الجهة القانونية والواقعية قد كان واضحا لا لبس فيه .

وقبل ذلك نجد شعراء القرن الثاني عشر والنصف الاول من القرن الثالث عشر قد طفح شعرهم بتمجيد سلاطين المغرب الاقصى وتعليق الامال على همتهم حتى انتهى الشاعر ابوعبدالله الورغي الى ان اعرب عن مدى امله في السلطان العلوي بقوله :

حتى ارى خيله في ارض اندلس تعيد من هيبة الاسلام ما فقـدا

وكذلك نرى وجهة الاعجاب بالبطولة كانت مولية نحو المغرب الاقصـى متخذة من عروبة السلاطين العلويين ونسبتهم الزكية اقوى سند للاعجاب وسعة الامل .

فلما نزلت بالعالم الاسلامي عامة والمغرب العربي خاصة كارثة الغارة الفرنسية على الجزائر ، ساد الوجوم وعاود النفوس مركب النقص باستسلام القوات العثمانية وعجز المغرب الاقصى عن الدفاع عن نفسها في وجه الفارتين الفرنسية والاسبانية ، بله تخليص الجزائر .

وكان لهذا الشعور المرير رجع عكسي ملأ النفوس املا واندفاعا في طغيان الحماسة لما تحرك البطل العظيم الامير عبدالقادر متخذا من الضعف قوة صال بها في وجه الغارة الاستعمارية صولته التي لم يزل تاريخ العالم الحديث يتجاوب باصدائها ، فانقلبت بموقفه الاية وذابت في حركته الفوارق الانانية والاعتبارات السياسية حتى ان سلطان المغرب الاقصى بنفسه قد ربط معه صلات ادبية سجلتها مراسلات ذات قيمة بارزة في التاريخ الادبي علاوة على قيمتها في التاريخ السياسي . فقد اطردت المراسلات بين الامير عبد القادر وبين السلطان عبد الرحمن بن هشام سنينا كان فيها السلطان يتفنن في اظهار اعجابه بالامير عبد القادر في تحاريره بصيغ ادبية ، وينظم القصائد في تهنئته والثناء على جهاده والاشادة بفتوحه وانتصاراته .

وقد اطلعت عند الاستاذ محمد الفاضل بن عاشور على نص وثائق مجموعة من تلك المراسلات هي وثائق فريدة في قيمتها ، ارجو ان يعتني بتحقيقها والتعليق عليها ونشرها في مجلة الفكر التونسية ، وهذه ابيات اسوقها على سبيل المثال المشوق وهي من القطعة التي صدر بها المكتوب الطويل في التهنئة بفتح تلمسان في ربيع الثاني ١٢٥٥ فيقول : ـ

بشرى بفتح كسا الاسلام احسانا ... وصار منه لعين الدين انسانا
اضاء في افق هذا الغرب مشرقة ... وبشر القوم انسانا فانسانا
صنع جميل سمت فضلا صنائعه ... لوحشة الدهر والايام انسانا
وكيف لا وبه ازداد العلا وسما ... وظهر الله مولانا تلمسانا
فاصبحت ووجوه السعد مشرقة ... بها جهارا كان الكفر ما كانا
لله فتح غدا للذكر فاتحة ... وصار كالخط فوق الكتب عنوانا
وخط في صحف التوفيق كاتبه ... خطا افاق على الاسعاد برهانا
لا زال يستخلص الاقطار منتصرا ... ثغرا فثغرا واوطانا فاوطانا

لكن اليأس استولى من جديد على النفوس بعد انهزام الامير ومرت فترة استسلام انتهت بظهور الخطر البلقاني فتجددت الحمية وتجدد الاتجاه الى سلاطين العثمانيين وخصوصا الى محمود وعبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد . واتخذ الادب نماذج في البطولة من القواد الذين برزت شجاعتهم في الحروب البلقانية والحرب الطرابلسية وظهرت في الشعر خاصة اسماء ادهم وانور ومصطفى كمال ، خصوصا فيما كتبه صالح سويسي والخضر بن الحسين والشاذلي خزندار الذي عارض قصيدة شوقي الشهيرة :

الله اكبر كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب

فواكبه في النظر الى قصيدة ابي تمام وقال :

يا سفر « سيفر » وان خطوك بالذهب ... السيف اصدق انباء من الكتب

اما الادب الحديث في المغرب العربي ، فقد تغنى ببطولة الاجداد والماضي المجيد لتحريك السواكن وبعث الهمم واقتلاع اسباب اليأس والخنوع من النفوس اولا ثم هو واكب الحركة التحريرية الجهادية ، ثانيا لما انتفض المغرب العربي بجميع اقطاره ينشد الحياة في بطولة نادرة وعزيمة حديدية . ولا يمكن هنا ان نذكر جميع الشعرا الذين تغنوا بالبطولة للرفع من معنويات الشعب ولا ان نتوسع في تحليل اغراضهم ، ولنكتف بذكر بعض الاسماء منهم على سبيل المثال :

هذا الشاعر الخضر حسين ينظم قصيدة في (١٢٢) بيتا تغني فيها ببطولة عبد الرحمن الناصر ، صقر قريش ، يستهلها بقوله :

خل نفس الحر تصلي النوبا ... لا تبالي ليست الاخطار الا سببا للمعالي

وهذا الشاعر سالم بن حميدة ينوه بالفتوة وبالتضحية في سبيل الوطن فيقول :

فخير للفتى موت بعز ... من الموت المجدد والسقام
فما عاش الذليل بفضل ذل ... ولا مات العزيز من الصدام

وهذا الشاذلي خزندار ينادي بما تفرضه البطولة من صبر وصمود وايمان وتضحية في قصيدة انشدها يوم تشييع سبعة من الشهداء :

نبكي لفرقتهم وهم احياء ... سبعا بكتهم تونس الخضراء
ما كان في كفي الحسام وانما ... من تحت فكي حية رقطاء
ارسلتها حصبا على مغتالهم ... فتريه ماذا يفعل الشعراء
ساهز من قومي الذين بلوتهم ... ما ترتضيه الهمة القعساء
عربية الاحساس في نخواتها ... لله تلك النخوة العرباء
لا تخلدوا فشلا لفل هزيمة ... ولو آدلهمت سحبها الظلماء
دعهم يريقوا يزهقوا يستنزفوا ... ننفوا يبيدوا يفعلوا ما شاءوا
واسترسلوا في الامر دون تراجع ... فالحبل منه انشقت الصماء

وهذا الطاهر الحداد ينوه ببطولة الشعب التونسي فيقول :

يا شعب تونس يا شعب المجادة لو ... وعيت ماضيك المسطور لم تهب
خلقت للموت في حفظ الكرامة لا ... للجبن تلبسه عارا مع الحقب
هيا بنا يا بني الاوطان نسعدها ... لا خاب من طلب العلياء بالداب

ونراه يستنهض الهمم في قصيدة اخرى مطلعها :

طال بنا النوم فهيا انهضوا ... نحو المعالي أيها الهجع

ونجد الشاعر بالمغرب العربي يتحين الفرص ليبلغ شعره وما تضمنه من معان سامية حافزة الى العمل لمواطنيه ، وهذا الشاعر التونسي عبد الرزاق كرباكه يتجاوب مع زميله الرصافي في العراق ويتعاطف وينظم قصيدة يهديها له عندما مرت على الرصافي ازمة نفسية وشعر باليأس ، وروت الجرائد بتونس انه خرج من بغداد هائما على وجهه ، فيذكره عبد الرزاق كرباكه بان البطل هو من يستسهل الصعب ويقتحم الاخطار وهو الذي يجاهد في سبيل الحياة الكاملة عن غير استسلام لليأس فيخاطبه بقوله :

شيخ الرصافة جل ما تصبو له ... اتريد ان تلقاه سهلا أسرا
اين البطولة عند ذاك وابن ما ... يلقى المجاهد وهو يقتحم الذرا

ثم يختم هذه القصيدة بدعوته الى الامل قائلا :

والى العلا ان الجلالة في العلا ... والى الذرا ان الكرامة في الذرا

واعتقد بعد هذا انه لا فائدة في ان اتحدث امامكم عن بطولة ابي القاسم الشابي الفكرية وعما اودعه شعره من معاني البطولة وعما كان له من الفضل في تحميس الشباب وحفزهم الى خوض المعركة ، فهو الشاعر التونسي بل الشاعر المغربي الوحيد الذي عرفه الشرق وطالع دبوانه

كاملا ويكفيني انأذكركم بالبيتين الشهيرين :

اذا الشعب يوما اراد الحيـــاة فلا بد ان يستجيب القـــدر
ولا بد للظلم ان ينجـــلي ولا بد للقيد ان ينكسر

ثم جاء طور المعركة الحاسمة فلم يتخلف الشعر ولم يتخلف الادب عنها . واذا بالشعراء يتغنون بالمجاهدين الاحياء منهم والاموات ، واذا فرحات حشاد والهادي شاكر وجميلة بوحيرد وغيرهم ممن يقودون اليوم الشعوب لشمال افريقيا رموز لما يجب ان يتصف به كل مواطن وكل مواطنة من صفات البطولة والاريحية الوطنية .

وانك اذا طالعت ما ينظمه شعراء المغرب العربي اليوم لتلاحظ ان البطولة التي يصورونها بطولة اصيلة شريفة متسامية توفق بين الشجاعة والراي وتجعل الاثنين يخدمان المثل العليا والقيم الانسانية الخالدة .

فهذا المجاهد التونسي يقول في شعر منور صمادح بعد قذف الطائرات الفرنسية لساقية سيدي يوسف الشهيرة :

سوف لا اقتـــل اطفـــالا كمـــا هـــم قتـــلوا
سوف لا اعدم نسوانا كمـــا هـــم حللـــــوا
سوف لا يغدر في ارضي السليـــم الاعـــــزل
انا جنـــدي شريف وشجـــاع بطـــــل
سالاقي الجيش لا العزل لا لا افعـــــــل

والبطل في ادبنا المغربي الحديث ثائر لانه لا يطيق الضيم ولا يصبر على الذل والهوان ويتحمس بقدر ما يمعن العدو في القمع ، ولكنه يعلم ان الثورة وسيلة لا غاية لانه ليس بالفوضوي الذي يلتذ بالهدم والقتل من حيث هما ، ثورته سبيل الى العالم الافضل الذي ينشده . وهذا الشاعر الجزائري ابو القاسم خمار ينظم الشعر الحماسي فتشتد لهجته ويدرك ان عاطفته ليست طبعا فيه لانه عنصر بناء لا تخريب ، لا عامل شر فيلتمس العذر من اخيه القارىء قائلا :

لا تلمني اخي فما لام جنـدي اخـــاه الا واعقـــب عـــذرا
ان حظنـي من بهجـــة ان اخيـــا ابيـــا او ان امـــوت ابرا
كل جيل ودوره .... ولقد كان لجيلي معامـــد الحـــرب دورا
هكذا املت المقادير ان ثـــوروا فثـــرنا لنقهر البغـي قهـــرا
لا تلمني ، وسائل العقل عنـــي كيف ابدو لو انني كنـــت حـــرا

والبطولة التي يصورها ادبنا المعاصر في شمال افريقيا بطولة انسانية نزاعة الى الحياة الانشائية توافة الى « المستحيل ترغمه على الامكان » ، زاخرة بالمحبة والاخاء .

هي بطولة تصور الحياة الزاهية الجميلة توهب في سبيل الحياة الحية ، بل استمع الى هذه الابيات التي اقتطعها من قصيدة طويلة للشاعر التونسي احمد مختار الوزير نظمها منذ اسابيع قلائل بمناسبة دخول الثورة الجزائرية المباركة في عامها الخامس واهداها الى بطلة الجزائر وفخر شبابها بل فخر العرب اجمعين « جميلة بوحيرد » يصفها وقد حملها الوعي الى الكفاح والانضمام الى اخوانها المجاهدين في سبيل العزة القومية فيقول :

وسارت جميـلة بـين الشـعاب تنقـل كالظبيـــة العاديـه
وعانقها النـور نـور الضحى وابصرها فـــذة غانيـــه
وابصر من عينهـا راميـــا الا حبـذا الاعين الراميـــه
وابصر من نهـدهـا قائمـــا ترجرجه الخفـة اللاهيـــه
وابصر من خصرها رقصـــة تحامى بهـا العثرة الكابيـــه
وباركهـــا النـور ألوانـــه والبسهـــا حلـة زاهيـه
وســـارت ترنح مختـــــالة عـلى صخرة الاطلس النابيـه
فوجـه سـني وروح ابـــي وحـب سخي وهـذا هيـه

ويختم القصيدة ، فاذا جميلة رمز الحياة توهب في سبيل الحياة والوجود الاكمل

جميلة انـت الوجـود بمـــا تريديـن مختـــارة راضيـه
وانـــت الحيـاة واكوانهـــا بمـــا فيـك مـــن عزمة ماضية
وذاك الاله السخي السنـــاء يبارك احلامـك الزاكيـــه
هو الحب كوثرة زاخـــر واثمار جنتـه دانيـــــه
فكوني لقومك كونـي لهـــم مـن الحب ايتـه العـــاليـه

واحب ، سـيـداتي سـادتي ، ان اختم هذه العجالة بهذه الابيات الزاخرة حياة ، الطافحة املا ، النابضة محبة وبطولة وايمانا بمستقبل الجزائر والمناضلين في كل مكان في سبيل الوجود الحق والكرامة والاستقلال وما اليه يسعى كل بطل في كل زمان ومكان .

محمد مزالي

دار الثقافة تقدم

ذهب مع الريح

لمرغريت ميتشل

الكتاب العالمي الذي ترجم الى اكثر اللغات

وبيع منه ملايين النسخ

ترجمة الاستاذين احمد عرابي وفؤاد ترزي

قدم له القصاص الكبير الاستاذ محمود تيمور

ثمن الجزء ٦٥٠ قرشا